الفن و التواصل الحضاري

أ. هني كريمة جامعة تلمسان

إنّ الوقوف عند مفهوم الفن يفترض واقعا حاضرا بقضاياه و مواضيعه المتشعّبة لهذا الواقع المبني على فلسفة النّظام الثّنائي للكون ، الحياة/الموت ، الجمال/القبح، الخير/الشر، العقل/الروح، البراءة / الوحشيّة ... إلى غيرها من مصطلحات تتأرجح بين كفّتي الشّيئيّة واللاّشيئيّة، ومهما تعدّدت المفاهيم والنّظريّات بشأن ماهية الفن وماهية العمل الفني فهي لا تخرج عن كونه " نموذج معطى للمحاكاة" [1] محاكاة الواقع على أساس الإمكانية والاحتمال، وهذا ما يؤكّده أرسطو في كتابه فن الشعر حيث يحصر العمل الفني في ذلك الإبداع المؤسّس على رؤية إبداعيّة " يستطيع الشاعر بمقتضاها أن يخلق عملا جديدا من مادّة الحياة و الواقع ، طبقا لما كان، أو لما هو كائن ، أو لما يمكن أن يكون، أو كما يعتقد أنّه كان كذلك "[2] ، ولو أنّ هذا التعريف مبالغ فيه للمغالطة الأرسطية في قوله "لما يجب أن يكون في الواقع"و كأنّه يعطي تبريرات أو تملّصات تتيح للفنّان عمل أي شيء باسم الفن ولو كان ينافي العرف الاجتماعي و بالتالي يخلي عنه مسؤوليته أمام العمل الفني في حالة فشله أو اختراقه لحدود المعتقدات الاجتماعية والتي تدخله في مطبات لا خروج منها ، حيث يدينه المجتمع ويحكم ربّما عليه حتى بالموت، وهذا ما يعيشه فنّانو اليوم من أزمات خانقة لإبداعاتهم الفنيّة، ولربّما قضيّة كمال بن داود و قضيّة الرّسومات الكاريكاتوريّة التابعة لجورنال Charlie Hebdo أفضل دليل على ذلك ، ولو تأمّلنا قليلا في عبارة Je suis Charlie لوجدنا أنّها بكل بساطة تعني أنّ للفنان حرية الإبداع لأنه ذو فكر حرّ ، له أن يقول ما يريد و يرسم بريشته ما يريد و يعبر عن وجوده كيفما يشاء ، لكن بهذا المفهوم تصبح الحرية تحمل معناها الدوستويفسكي حين يقول على لسان أحد أبطال روايته "الممسوسون" :" لقد بحثت على الحرّيّة المطلقة فانتهيت إلى الاستبداد المطلق . الموت . " [3] .

إن الحرّيّة المطلوبة هنا هي الحرية التي يتحكّم فيها العقل ، الذي يمنهج عمليّة المحاكاة ، إذن المحاكاة تبقى هنا هي المعيار الوحيد للفنّان وهي " محكّ الحكم على العمل الفنّي "[4] والفنّان أيضا لأنّه هو منتجه ، و هي بهذا المفهوم مطبّ الفنّان و عطبه إذا أخطأ المنهج ، فأين المسلك ؟

إنّ السّؤال الذي يطرح نفسه بشدّة في هذا المقال إذا كان الفن بهذا المفهوم الطلق للفكر وحرّيّة الفنّان في الإبداع، فهل هذا يعني بحتميّة الفن لانسلاخه من الهويّة أي أنّه مجرّد من الهويّة أو لا هويّة له، بمعنى آخر إذا نسبنا هذا الفن إلى أمّة بعينها أو حضارة ما، مثل قولنا فن حضارة الشّرق القديم أو فن حضارة اليونان، أو هذا فن أوروبي وذاك فن إسلامي، بحكم أن كل منهما له أصول معيّنة ينطلق منها، هنا الجدل قائم في مسألة الازدواج الحضاري، و الإبداع في دوّامة لا قرار لها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كثيرون من الأعلام الذين كتبوا في تاريخ الفن من أمثال غايه Gayet وبريون Brion و مارسيه Marcais و كنت و هيقل يدعون إلى ما يمكن إطلاق عليه اصطلاح "غربلة الفن" حتى نصل إلى الخالص منه والنقي و الطاهر، ولا يتسنّى لنا ذلك إلا بدراسة واعية لفسفة الجميل ، بما فيها موضوع القبح ، لأن هذا الأخير يعتبر " درجة من درجات الجمال متدنّيّة لإظهار درجات الجمال ، و الفن احتجاج دائم نحو التّنوير ضدّ إمارات القبح و الهبوط المادي و المعنوي و الانحرافات ، ضد الاستخدامات البشعة للفن و الجمال "[5] و من ثم تبدو وظيفة الفن جليّة في استيقاظ النفوس لترى الجمال و تعمل بمقتضى هذا الجمال و ترقي بمستوى الذّوق الفنّي نحو البناء الحضاري والتّواصل الثّقافي .

فالفن هو " الحضارة ، قوّة فعاليّة إبداعيّة راقية تدل على مستوى رقي الإنسان ووسائله في مجتمع معيّن ضمن حدود مكانيّة وزمانيّة، وهو لغة تعبيريّة مرتبطة بروح هذه الأمّة "[6] ، وعليه فإن ربط الفن أو نسبته إلى حضارة ما ليس معناه تجريده من هويّته بل العكس توضيح لمعالم هويّته و تفاصيل حضارته وحفظ لحدود أمته من الضّياع المحوّط بهوس المفاهيم الخاطئة و الذّاكرة المغلوط فيها .

ولن يتأتّى هذا الحفظ إلاّ عن طريق ما أسماه 'كانط' بأصالة الفكرة علاوة عن الذوق الفني، فكانط يقول عن الفن " هو اللعب الحر لملكات المعرفة، وهو وسيلة من وسائل معرفة الواقع "[7] لأنه يكشف عن الجزء الذي هو أساس الكل، ولا جميل إلاّ بانسجام هذا الجزئي بذاك الكلي.

ويقترب منه 'هيقل' في هذا المعنى حيث يجعله من وظيفة الفن وظيفة روحيّة "كونه صيغة من صيغ الوحي و الإلهام "[8]، و أنّه شكل من الأشكال الكليّة للعقل " إنّه الألق الحسّي للرّوح و هو يشكّل مرحلة أوّليّة في طريق العقل نحو الحقيقة المطلقة "[9] ، وهنا يوافقه 'شوبنهاور' الذي يحصر وظيفة الفن فيما يسميه بالخلاص الإنساني من قيود الواقع المر ،حين يقول أنّ الفن بقدر ما هو تعبير عن الحقيقة الجوهريّة بقدر ما هو انعتاق للفنّان من عالم الظواهر و حتى للمتلقّي المتذوق لعمل هذا الأخير لأنّ " الفن وكذلك الموضوع الجمالي ينقلان الذّات عن طريق الإدراك من الفرديّة بمنافعها و غرائزها و صراعها إلى ذات خالصة و هو ما يتيح لها فرصة الخلاص المؤقّت من الشّقاء و البؤس "[10].

كان الفن ولعصور طويلة مرتبط بجذور دينيّة و شعائر طقوسيّة ، هل هذا يعني أن الفن فقد من قيمته و مفهومه الخاص . المتّسم بالجمال . بل العكس منذ نشأته قام على "محاكاة الإنسان في أعلى مقاييسه الرّياضيّة و أجمل أشكاله وأسمى أخلاقه و مطامحه"[11] ، فلا مجال للمقارنة بين فن قديم و فن حديث أو معاصر أو فن جميل وآخر رديء ، أو هذا فن شرقي وذاك فن غربي بعيد عن أصالتنا ومعارفنا ، فالحقيقة تكمن في سرّ المحاكاة ذاتها، فلكلّ صنيع فنيّ في حقبة معيّنة من الزّمن لمسته الجماليّة ، حتى تلك الفنون التي وصفت . من طرف مؤرّخي الفن . بالانحراف و الفساد ، لها ما تعبّر عنه من مشكلات وأزمات حضاريّة أرّقت النّفس البّشرية عن الحياة المستقيمة ، يؤكّد 'عفيف بهنسي ' في حديثه عن جماليّة الفن أنّ عصر النّهضة . و بالّضبط في القرن السادس عشر . شهد الفن قمّته من التمرّد وانقلاب المفاهيم حيث " ظهرت النّهجية Manirisme وظهر بعدها بسرعة فن الباروك Baroque و الروكوكو Roccoco، هذه الاتجاهات التي اعتبرها مؤرّخو الفن في الغرب ضلالا و انحرافا، بل سقوطا وانحطاطا على الرغم أنّها استمرّت قائمة حتى الثورة الفرنسيّة "[12]، هذه الأخيرة التي عملت على نقضها و القضاء عليها، لكن مع الثّورة الشّيوعيّة وانفجار عصر الرومانسيةّ، عادت هذه الفنون التقليديّة ولو اختلفت الأهداف والموضوعات، إذ لا يمكن للفن أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يموت مهما كانت صفته لأنّه دائما يحمل في ثناياه لمسات إبداعيةّ خالدة عبّرت على نمط معيّن لإنسان ذالك العصر أو الحقبة الزمنيةّ ولو كانت قصيرة جدا .

إنّ " الفن يجعل الوجدان واضحا ، و يعطينا ما هو موضوعي حيث يمكن تأمله وفهمه "[13] مهما كانت بشاعته و ودرجة قبحه ، فالمعرفة الفنّيّة العمليّة هي تلك التي تمدّنا بنماذج حيّة للوجدان الواقعي و شيء من الإدراك الحسّي لفهم الواقع.

إنّ الإنجاز الفنّي في كل أشكاله الإبداعيّة حتى اللامعقولة منها والعبثي اللاّوجودي يرجع في أصله إلى الطبيعة وبالتالي لا مناص من المحاكاة ، التي هي أساس تجسيد كل ما يتمثّل في الطبيعة الخارقة ، فالتجربة الفنّيّة لا تنتهي بانتهاء لوحة تشكيليّة ما أو تنظيم قصيدة معيّنة أو رواية أو حدث قصصي ما، بل تبقى مفتوحة لأفق الإبداع طالما هذه الطبيعة هي التي تزوّد الفنان بمواضيع جديدة تبقى دائما هاجس البحث والاكتشاف في أسرار جمال الكون .

إذن هويّة الفن تنحصر بين الذات العارفة و الموضوع المدرك ، الذات التي تبحث في حقيقة الشيء و الموضوع المعرض للدّراسة للكشف عن الأثر الجمالي فيه، ومن هنا تتحدّد العلاقة بين هذا الأثر والقيمة الجماليّة التي ينطوي عيها ، لتحدث المفارقة الفنّيةّ التي تحدّد بدورها للعمل الفنّي مساره و هويّته ، و عليه فإنّ فلسفة الفن مبنيّة في أصلها على فلسفة جماليّة لا حصر لها تطالب " باستمرار بمحو الحدود الميتافيزيقية في تأويلها للمعنى بين الأجناس الفنّيّة فيما بينها و بين المعارف المتاخمة لها "[14].

كما أنّه لا ضرورة لجعل الفن محصورا في بوتقة الانتماء و الاغتراب ، فلا يوجد حرج في مسايرتنا للفن الأوروبي والأخذ ما يجب الأخذ منه إذا كان ذلك ملهما للإبداع والخلق والتماشي مع الحضارة، لأنّ الحضارة الغربيّة تحرّكت في الماضي " من استخلاص دعائمها الأساسيّة من من حضارات الشرق الأوسط "[15] والاستفادة من علومنا وفنوننا ودراساتنا وحتى طبائعنا وأعرافنا الاجتماعيّة التي عرف الإنسان الشّرقي عموما بها، التي كانت مصدر إلهام الكثير من المبدعين الأوروبيين تمثلت في لوحاتهم التشكيليّة وأعمالهم الرّوائيّة كاستلهامهم من قصص "ألف ليلة وليلة" . على سبيل المثال وليس الحصر " أفلاطون قام برحلات متعدّدة إلى الشّرق واقتبس من حكمة الشرق عناصر كثيرة ، ولم تكن العقائد الأورفيّة والفيثاغورية التي كان لها أقوى الأثر في تفكيره إلاّ وسيلة لنقل التيّارات الدّينيّة من الشّرق إلى اليونان "[16] .

فالفن الحقيقي لا يكمن في التنافر الحضاري بقدر ما يكمن في الازدواجية الحضاريّة الرافضة لهيمنة التّبعيّة والاستبداد الفكري، وفي هذا السّياق يقوّم الباحث 'جاك غودي' علاقة الشرق بالغرب وقضيّة الازدواج الحضاري بتساؤله المعقول " متى أصبح الأروبيّون على وعي بتفوّقهم بالنّسبة إلى سائر الأمم ؟ "[17] والإجابة بالتأكيد تكمن في الاحتكاك بالآخر ولو على اختلاف عاداتهم ودياناتهم وأفكارهم، وعدائهم الشّديد للعقيدة الإسلاميّة، مستأنفا حديثة بطرح إشكاليّة أخرى تمثّلت في قضيّة التفوّق العرقي، فلا يجب أن يكون هذا الآخر عائقا أو حاجزا أمام الإبداع الفنّي، بل نقطة انطلاق قويّة للفنّان المتحضّر لرسم له آفاق جديدة للإبداع و التواصل الحضاري، فبدلا من استبداد نزعة التفوّق العرقي، لا يوجد أفضل من التّشديد على المعرفة وعلى العقل للكشف دائما عن الأثر الجمالي في عمل الفنّان المبدع الذي يواكب الحقيقة في سيرها الحضاري .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش

[1] . حميد حمادي ، سؤال المعنى ، منشورات مخبر الفلسفة و تاريخها ، دار الغرب للنشر و التوزيع ،ط1 / 2005 ، ص 11.

[2] . أرسطو ، فن الشعر، تر : ابراهيم حمادة ،مكتبة الأنجلو المصرية ، دط ، دت ، ص 25.

[3] . سؤال المعنى ، ص 11.

[4] . محمد الشيخ ، المثقف و السلطة ،دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر ، دار الطليعة ، بيروت ،ط1991/1، ص 131.

[5] . المثقف و السلطة ، نم ، ص 131.

[6] . مصطفى عبده ، مجلة حواء / ضرورة الفن في البناء الحضاري و التواصل الثقافي ،العدد 12.

[7] . عفيف بهنسي، جمالية الفن العرب،عالم المعرفة ،الكويت دط ،1979 ،ص 11.

[8] . يحي البشتاوي ، الوظيفة و موتها في العرض المسرحي ، منشورات أمانة عمان ،ط2007/2 ، ص 123.

[9] . الوظيفة و موتها في العرض المسرحي ، نم ، نص.

[10] . الوظيفة و موتها في العرض المسرحي ، نم ، نص .

[11] . جمالية الفن العربي ، نم ، ص 14.

12 . جمالية الفن العربي ، نم ، نص.

[13] . يحي البشتاوي ، الوظيفة و موتها في العرض المسرحي ، نم ، ص 124.

[14] . سؤال المعنى ، ص 20.

[15] . خيري منصور ، الاستشراق و الوعي السالب ، ص39 .

[16] . خيري منصور ، الاستشراق و الوعي السالب ، نص.

[17] . جاك غودي، الشرق في الغرب، تر: محمد الخولي، مركز دراسات الوحدة العربية، د ط، د ت، ص10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

www.manaraa.com